بسم الله الرحمن الرحيم (العزة والكرامة بين المتنبي ومتأخري العرب)

١) نُشر في بعض وسائل الإعلام العربية خبر عن اكتشاف منزل للمتنبي والحث على اتخاذه مزاراً يُذكّر العرب بالعزة والكرامة التي كانت للمتنبي رمزاً لها، فطلبت مني الطلعني على الخبر وهو أحد الدعاة على منهج النبوة أن يتولى الرد عليه مُذكّراً الكاتب والمكتشف والقارئ بأن المتنبي آخر من يصلح رمزاً للعزة والكرامة الحقيقية، وقد قضى الله تعالى في محكم كتابه أن العزة (ومرادفها الكرامة) إنما هي لله ولرسوله وللمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

وسيأتيك نبأ المتنبي من خبير نقاده: د. طه حسين تجاوز الله عنه في كتابه: (مع المتنبي - دار المعارف - ط١٢) بعد قليل إن شاء الله.

٢) وقد اشتهر الجمع بين المترادفين (العزة والكرامة) في خطب جمال عبد الناصر تجاوز الله عنه، بل أدّعي أنه مصدرهما فقال إثر محاولة اغتياله (وإنهم ضربوا عزب الإخوان المسلمين وحكم على عدد منهم بالقتل أو السجن): (ولكم يقتلوني فقد خلقت فيهم العزة وخلقت فيهم الكرام)، وأذيعت هذه الكلمات ألف مرة ثم أخفيت فلم تسمع مرة أخرى تجاوز الله عنه. ودعاوى عرب العصر (مثل دعاوى المتنبي) عريضة لو أعطي كل مدّع بدعواه - ولكن ألفاظها جوفاء. على أن الرمز للعزة أو الكرامة العربية اليوم بحال المتنبي لا يبعد عن الصواب، فلا يتجاوز الدعوى بالقول شعراً أو نثراً!

٣) وقد عاب المتنبي (بيع ماء وجره على محدوحيه) في لفظ طه حسين، وقال شاعر قبله عن المتنبي:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً؟
عاب حيناً بيع في الكوفة الماء وحيناً بيع ماء الحياض (ص١٢)

وليس من العزة أو الكرامة أن يتجنب منتم إلى العروبة أو الإسلام ذكر أبيه أو أمه أو أحد من أهله (غير جدته) ولو طعنه اللامزون (بينما يفاخر جرير بأسماء الشعراء ويقارعهم فيغلبهم) (ص١٢ نقلاً عن كتاب الأغاني).

٤) ويذكر المؤرخون أن المتنبي درس في مدرسة شيعية لبعض العلويين وأخذ منها أسس ثقافته ومنهج حياته المقبلة (ص٢٤). وثقافة الشيعة تكاد تضحي الضعة والذلة مع فساد المعتقد، (وقد نقل عنهم أكثر المنتمين إلى السنة عدوى الانحراف عن صحيح المعتقد وصحيح العبادة والتصوف والتعلق بالقبور وتقديس المشايخ، والابتداع في الدين عامة، والفتن.

٥) ويستنتج طه حسين من شعر المتنبي أنه (تعلم في البادية العراقية أصول القرامطة وعرف مذاهبهم، فصار في شبابه قرمطي الرأي متخفياً لأنه يكون قرمطي السيرة) ص٤٢. ومنهج القرامطة يجمع بين الإلحاد في الدين،

والخروج على المسالمية، واسمع قول المتنبّي:

إلى أيّ حيّ أنت في زيّ محرم ... وحتى متى في شقوة وإلى كم؟
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد ... يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم.

وظ حسين يرى في البيت الأول: كراهة صفة الإحرام عما حرّم الله، وفي البيت الثاني: الحث على الخروج وشقّ عصا الطاعة، (ص ٤٤).
وظ يرى أنّ المتنبّي جمع في الأبيات التالية مهنة التّزلّف والتّسوّل التي لازمته بقية حياته وصرّح القول بالحلول:

يا أيها الملك الأصفى جوهراً ... من ذات ذي الملكوت أسمى من سما،
نور تظاهر فيك لاهوته ... فتكاد تعلم علم ما هو بعلما،
أنا مبصرٌ وأظنه أني نائم ... من كان يعلم بالإله فأعلما.

بمعنى: أنّ ممدوحه قبس من ذات الله، وأنّه هذا القبس نور لاهوتيّ استقرّ فيه فكاد أن يظهره على الغيب، وأنه الشاعر يرى الله تعالى في يقظته وظنّه ظنّ حيناً أنّه في نوم، لأنه الله لا يُرى في الأحلام (ص ٤٥).
وظ حسين باحث محقّق لا يتّهم المتنبّي بما اتّهم به من ادّعاء النّبوة ولا يشكّك في نسبه كما فعل غيره ولا يحكم على الأبيات أنها في ديوانه.

٦) إذن، (نشأ المتنبي في بيئة شيعيّة ساخطة تنتظر الفرج بثورة عاصفة في بيئة قرمطيّة هادمة لأصول ونظام الاجتماع المعنوية والمادية.
ولما انهزم القرامطة وجلوا عن الكوفة إلى البحرين حلّ المتنبّي عن الكوفة إلى الشام وآثر الحيطة والحذر فاخفى قرمطيّته ودعوته إلى الله، وجاري ممدوحيه ودارهم وخصّهم بمدحه واستجدائه وظ أبضاً (غير على الحمداني)، وأعلن عن بغضه ومقته لعامّة النّاس (غير نفسه) ص ٤٧.

٧) وليس من العزّة والكرامة أن يضحّي الشاعر بدينه وخلقه استجداءً للمال أو الوجاهة أو الإمارة فيقول لبعض ممدوحيه:

إن كان مثلك كان أو هو كائن ... فبرئت حينئذٍ من الإسلام.
لم يخلق الرحمن مثل محمدٍ (١) ... أحداً وظنّي أنه لا يخلق.
لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرت عروسا
أو كان صاف رأس عازر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لجّ البحر مثل يمينه ... ما انشقّ حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران مثل جنانه ... عُبدت فكان العالمون مجوسا.

ويقال: إنه أُعطي عشرة دراهم على هذه السّينيّة وشغل فأعطي عشرة دراهم أخرى (ص ٧٧)، وأعطي مالاً وقطاعاً على بعض قصائده، ولم يقطع على بعضها شيئاً، ومهما أُعطي فهو ثمن بخس لدينه وكرامته.

٨) وكان يكره الخمر لأنها لا تلائم طموحه إلى الجهاد القرمطي:

(١) من بني أوس به من بعد الرّضا كما في البيت الذي سبق من هذه القصيدة.

أذمّه الهمام الجندريس ... وأحلى منه معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي ... ولقاحي خميساً في خميس

ولكنّه يشرب إرضاء لممدوحه حلف عليه بالطلاق ليشربنّ:

فجعلتُ ردّي عزمتي كفّارة ... عنه شربتُ وشربتُ غير أثيم.

ويشرب لأنه ممدوحه حلف بحقّ ليشربنّ:

سقاني الخمر قولاً لي بحقّي ... وودّي لم تشبه لي بمذق
يميناً لو حلفت وأنت ناءٍ ... على قتلي لصرتَ من عتقي.
وإن أطلقتُ رضا الأمير بشربي ... وأخبرتُ فلقد تركتُ الأحرما.

٩) ويكاد المتنبّي أن يتوب إلى رشده بعد ألمّ ضيف الشيب برأسه:

إلى كم ذا التخلّف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي،
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد.

ثم يعود إلى الانحراف الديني ودعوة الخروج القرمطي:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود،
فاطلب الضيم في لظى وذر الذلّ ولو كان في جنان الخلود،
أنا في أمّة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود.
لقد تصبّرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم،
لأتركنّه وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم منه ساقاً على قدم،
بكل منصلت ما زال منتظري ... حتى أدلّت له دولة الخدم،
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحلّ دم الحاج في الحرم.

١٠) وقد تلوّنه هذه الأبيات التي تظهر فرط الرغبة عن الدنيء القويم والرغبة في سفك الدم (دم الرعاة ودم الرعايا) هي التي سبّبت سجنه، وهي:

أفاتكٌ في مفاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الروادي،
زعيم للقنا الخطّي عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي.

ويهدّد الأمراء الذين يمنعون حجّابهم من ذبح كرامتهم على أعتابهم بذبحهم:

فإنّهم قد ألفوا الحجّابا ... واستوفوا الرذايا السوّابا،
ولِمَ حرّم الصارم القرضابا ... والذابلات السمر والعرابا،
ترفع فيما بيننا الحجابا.

ميعاد كلّ رقيّة الشفرتين غداً ... ومنه عصى منه ملوك العرب والعجم.
فرءوس الرماح أذهب للغيظة وأشفى لغلّ صدر الحقود.

ويرفع نفسه (بالادّعاء الفارغ) عن بقية الخلق:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكنّ معدن الذهب الرغام.

١١) وفي أول عهده بالسجن أظهر التجلّد والمحافظة على كرامته النفسية:

كفى أيّها السجن كيف شئت فقد ... وطّنت للموت نفس معترف.

ثم بدأ يستعطف الوالي التركي متشفعاً بغربته ودموع جدّته:

بيدي أيها الأمير الأريب ... لا لشيء إلا لأني غريب،
أو لأمّ، لربما إذا ذكرتني ... دمع قلب بدمعه منكوب،
إنه أكثر قبل أن أراك أخطأ ... تُ فإني على يديك أتوب.

ثم استعطف بقصيدة أخرى يذكر فيها أنه متهم بالنيّة لا بالتنفيذ:

ولكنه فارقا به دعوى أردتَ ودعوى فعلتَ بشأو بعيد.

فأطلق ابن كيغلغ سراحه بعد أن استتابه في مجلس لبعض أهل الحلّ والعقد فتاب وأشهد على نفسه أن جحد ما كانه من أمره وعاد إلى سبيل المسلمين (ص ١٠٢).

ويمدح قصيدة في مدح الأمير التركي ادعى فيها أنه نوره يبهر أكثر من الشمس، ولعله يريد الحصول على عفوه طمعاً في حظوته وماله:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره،
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره.

فرفض الأمير استقباله أو سماع قصيدته، وأمره بترك الإقليم، فانتقل إلى حياة جديدة ليست أقل بؤساً وشقاء وبعداً للكرامة وبذلاً للكبرياء، ثم البكاء على ما بذله وفرّط فيه، وكان ينفي الدنيا والناس جميعاً ولا يثبت إلا نفسه في ادعاء حبّ كاذب لهو أول من يعلم حاجته ويكذبه:

وكلّ ما خلق الله وما لم يخلق ... محتقر في همتي كشعرة في مفرقي.
واقفاً تحت أخمص قدر نفسي ... واقفاً تحت أخمص اللئام.
وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام.

وقد جمع عنه غثّه هنا فيبلغ نفسه مدركاً ما وصل إليه من الذل والهوان:

ذلّ من يغبط الذليل بعيشه ... ربّ عيش أخفّ منه الحمام،
مُرّ يومه يسرّ الرواة عليه ... ما الجرح بميّت إيلاما.
وإذا ما خلا الجبان بأرضه ... طلب الطعن وحده والنزالا.

ثم يعود إلى سوء ما كانه عليه لا يتوب ولا يتذكر:

يمدح الوالي الفارسي فيجعل الفرس فوق كل أصل شريف وخير قدوة:

فارسيّ له من المجد تاجٌ ... كان منه جوهر على أبرواز
نفسه فوق كل أصل شريف ... ولواتي له إلى الشمس عازي
وبآبائك الكرام التأسّي ... والتسلي مما مضى والتعازي.

ويمدح الوالي ابن طغج الإخشيدي وقومه:

حميّة على الأعداء من كل جانب ... سيوف بني طغج بها خفّ القماقم،
لهم المحسنون الكرّ في حومة الوغى ... وأحسن منه كرّهم في المكارم.

ويمدح من يطمع في نواله بما يغضب الله؛ فيقول لأحد العلويين:

وأبهر آيات النبي(1) أنه ... أبوك وأحرى ما لكم منه مناقب

ويقول لبديه بحضرة عضد الدولة:

لو كان يعلمك بالإله مقسماً ... في الناس ما بعث الإله رسولا،
لو كان لفظك فيهم ما أنزل الفرقان والتوراة والإنجيلا.
طلبنا رضاه بترك الذي ... رضينا له فتركنا السجودا.

مع أن ذمه ومدحه مما قبل ليمدح عدوه:

فولى بأشياعه الخرشني ... كشاء أحست بزأر الأسود.

ويذم كافور الإخشيدي بما لا يُذم به فروى قد الله عليه لامه كشبه:

مه علم الأسود المخصي مكرمة ... أقوامُ البيضُ أم آباؤه الصيد.
وإنك لا تدري ألونك أسود ... مه الجوع أم قد صار أبيضه صافيا.
وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى.

مع أنه مدحه مما قبل بمثل قوله:

ولكنك الدنيا إلي حبيبة ... فما عنك لي إلا إليك إياب،
وأمضى سلاح قلد المرء نفسه ... رجاء أبي المسك الكريم وقصده.
وأي قتيل يستحق قدره ... معد وعدنان فدال ويعرب.
قواصد كافور توارك غيره ... ومنه قصد البحر استقل السواقيا.

وأعلمه طمعه في الحصول على ضيعة أو ولاية مع فضل كافور وتحت إبطه:

إلى الذي تهب الدولات راحته ... ولا يمنّ على آثار موهوب.
إذا لم تنطقي بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب.

فغيرة المتنبي وكراهته أبداً يضعه في المزاد كما فعل مع سوء الحمير يكبر همه يزيده ثمنا.

(2) وقد وازن طه حسين بين كبرياء المتنبي التي قادته إلى الذلة والهوان، وبين كبرياء خلف الهمذاني التي قادته إلى التواضع مع أنه كلاهما منهما في دينه:

كان المتنبي عبداً لشهواته: المال والمتاع والجاه، وأنفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات، واحتمل في سبيل ذلك السؤال وباع شعره في سوق الكساد، ومدح من كان يحتقرهم ويعلم من كان يزدريهم، وباع نفسه وحريته لكل من طمع في نوال عربياً أو فارسياً أو تركياً أو مولى، وظل يهيم في هذا الفساد الخلقي والسياسي حتى أدركه الموت.

فأين هذا من أبي العلاء المعري الذي لم يدع لنفسه شهوة إلا أذلها، ولا عاطفة إلا أخضعها لسلطان عقله، واعتد بنفسه فارتفع بها عن السؤال، وآثرها بالعافية، وألزمها القصد والاعتدال، وصبرها على اللذة والمتعة وعلى البيع والشراء ولم يطمع في ولاية أو لذة رخيصة، وإنما أراد ما هو أرفع من ذلك مكاناً وأجل خطراً: التوحد:

توحد فإنه لله رب واحد ... ولا ترغبنه في عشرة النوكاء) ص 11.

(1) يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وأبهر آياته القرآن كما يعلم كل مسلم.

وموازنة إن شئت (في مثال واحد) بين تواضع أبي العلاء وبين شفعه صالح في قومه؛ فأنقذهم الله به منه:

نجّى العشائر منه برأيه صالح ... ربٌّ يفرّج كلّ أمرٍ معضل،
ما كان لي فرع جناح بعوضة ... الله ألبسهم جناح تفضّل.

وبين كبرياء المتنبّي الفارغة:

أقلّ فعالي بلّغ الكون مجدَه ... وذا الجدّ فيه نلتُ أو لم أنل جدّ.

وانتقاص غيره من الناس وهو أبدًا يمدّ يده إلى دُورهم وأغنيائهم:

أزمّ إلى هذا الزمان أهلَه ... فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ،
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ ... وأسمحهم فهدٌ وأشجعهم قِرْدُ.

وموازنة إن شئت (في مثال آخر) بين حَبْس المصري نفسه في داره خمسة عامًا وبين سفر المتنبّي الدائب في طلب المال والمتاع والجاه بذلّ السؤال، حتى وافاه أجله في سفره الأخير بسبب قصيدته البائية في هَجْو ضبّة وأمّه، وهي أرذل قصائده وأسقطها وأكثرها فحشًا وظلمًا وجورًا بالسوء من القول فيما بينه وبين الناس، أما فيما بينه وبين الله وشرعه ورسوله وكتابه؛ فأمرٌ آخر يتولى الله جزاءه فهو وحده العليم بما تُخفي الصدور وما تختم به الأعمال، تعالى الله، وتقدّست أسماؤه، وطهر شرعه ووحيه، وصلى الله وسلم على رسوله وعلى جميع رسله وأوليائه. ولكنّ ظاهر الأمر بين ينفي دعوى العزّة ودعوى الكرامة عن حياة المتنبّي وعن حياة المقتدين به من دعاة العصبيّة والوطنيّة والقوميّة العربيّة في هذا العصر. وقال عنهم الشيخ د. بكر أبو زيد رحمه الله في كتابه الفريد (حكم الانتماء للفرق والجماعات والأحزاب الإسلاميّة) وهو في رأيي خير كتبه: (وهي) أي: عصبيّة وحميّة الجاهليّة الأولى (تنشأ في النشأة - إلى حدّ بعيد - تلك الصيحات المعاصرة في وسط ديار المسلمين إلى الوطنيّة والقوميّة، إلا أنّ عصبيّات ما قبل البعثة فيها من الأنفة والكرم والشجاعة ما يفوق ما لدى هؤلاء الأخلاط والأوباش المجتمعين باسم القوميّة، فلا هُمْ للإسلام نصروا ولا للنّعرات الفنائيّة كسروا) ص١٢، مهذّب حكم الانتماء لكاتب هذه السطور، ط دار الإمام أحمد بالقاهرة ١٤٢٦.

بل لم نرَ في المتأخرين من (أنف) الجاهليّة الأولى إلى دعوى العزّة والكرامة الكاذبة، ولا من (الكرم) إلى بذل الطعام لغير مستحقّ للشمعة وطلب المقابلة بالمثل، لا للمسكين ولا لليتيم ولا للأسير كما شرع الله، ولا من الشجاعة إلا التهوّر وقتل النفس بغير حقّها في سبيل التراب والحقد والحسد والعاطفة.

وعلى كلّ حال؛ فسفر المتنبّي وشعره النسوليّ، وحَبْس المصري نفسه في داره ابتكارًا أو اتباعًا لفلسفة وثنيّة، وأنفة وكرم وشجاعة الجاهليّة الأولى، ودعوى الكرامة الحديثة والقديمة لا قيمة له في موازين الآخرة، هدانا الله جميعًا لأقرب من هذا رشدًا

١٤٢٩